الظاهرة القرآنية

■■ يقدم القرآن الكريم نفسه كدعوة إلهية للعالمين . . وإشراف كامل على جميع مجالات الحياة ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٧-١٣٨) وإحدى دعائم هذه الهيمنة أن يعرض الحقيقة الثابتة والوحيدة للوجود كمحور تدور حوله حياة البشر ■■

بقلم : محمد بدر الدين بن حسن

بين الكتاب المقروء وصفحات الكون المنظور . . .

إن صفحات هذا الكتاب المقروء وجه آخر لحقيقة صفحات الكون المنظور وآيات الله المتلوة تفصيل لآيات الله وسننه المعروضة في جنبات الأرض والطبيعة :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام : ٩٧) ، وإن الأخذ بهذه الوحدة الكونية يقتضي متابعة عميقة لآيات الكتاب الحالّة في أرجاء الوجود لأن ما ينطبق على الذات ينطبق على الحياة من حيث صدور وخضوع كل منهما لقانون إلهي واحد عبَّر عنه القرآن بقوله :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ (الروم : ٢٢) .

إن صفة هذا التلون البديع لا تميز بين الذوات فكلها مظاهر واحدة رغم اختلاف الطبائع والوظائف لسنن الذات العليَّة .

الإعجاز في الكتاب وفي الخلق

إن أحد وجوه الروعة في القرآن أنه يقيم دلائل الإعجاز في مزج محكم بينه وبين الحياة : حياة الطبيعة الزاخرة الموحية ببدائع القدرة والجلال وعظمة الكتاب الشامل الموحي بأنوار الهداية والكمال من خلال آيتين تربط بينهما روابط التجانس والإحكام ، تقول الآية الأولى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج : ٧٣) .

وتقول الآية الأخرى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ٢٣) .

هناك تطابق كلي بين مظهر التحدي والإعجاز في الآية الأولى القائمة على تفرد الخلق والتدبير ، وبين الآية الثانية القائمة على التبكيت الإقراري ، ذلك أن حقائق الكون ذات إرادة واحدة وتوجُّه واحد ، فما يثبته القرآن الكريم ويظهره في آن واحد ينبغي أن تُلتمس له النظائر في عالم الحس المشهود ، وهي إحدى طرائقه المهمة في الاستدلال على حقيقة الألوهية .

لا تعارض بين آيات القرآن وآيات الكون

إن طبيعة الكلام الإلهي الخالد لا تُدرك إلا في ضوء الشواهد والتجربة المتنوعة ، والأمر الذي لا يمكن أن يحصل أو يُتصور أبداً هو إمكان قيام تعارض بين آيات القرآن وآيات الكون ، وهي الحقيقة الأولى التي ينبغي لدارس القرآن أن يعلمها .

إن القرآن الكريم يقدم نفسه أيضاً على أنه إعجاز كامل على سبيل البرهنة وإثبات الحق المبين ، وليس من طبيعته أن يقيم الحياة ويصور معالمها على صور إعجازية في حياة الإنسان اليومية ، فهي أشد ما تكون ملاءمة للطبيعة نفسها ، **وإنما يسعى القرآن دوماً إلى كشف ووصف الأغراض المؤدية للحقيقة** . يقول ممثلاً هذا المنزع :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الدخان : ٣٨-٣٩) ، وإن الوحي نفسه صورة لتلك الملاءمة وشرح لها :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (الشورى : ٥١) .

فاللطف الإلهي وطبيعة الإنسان يقتضيان حصول هذا التفاعل بين الأرض والسماء ؛ لضمان وحماية حياة الإنسان فوق الأرض ، وحتى مهمة الرسل جميعاً لا تعدو إرجاع الأمور وهدايتها إلى حقيقتها عبر نضال طويل :

لقد حدث أن كسفت الشمس عند موت **إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام** وسمع الرسول الناس يقولون إنها كسفت لموت **إبراهيم** : فما كان منه ﷺ إلا أن جمع الناس بالمسجد وخاطبهم قائلاً :

« **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت احدٍ ولا لحياته** » [شرح ابن حجر لصحيح البخاري : ج٦ ص٢٩٧] .

واقعية الحدث القرآني . . .

إن المظهر الآخر والهام لتمثل مدى معانقة النص القرآني للواقع الطبيعي معايشته الكاملة للأحداث اليومية لسير الدعوة الإسلامية ، والتي تبرز بالخصوص في تنزلات القرآن - وهي الحقيقة الثانية التي ينبغي لدارس القرآن أن يتمثلها في فكره - لقد كان القرآن الكريم في مختلف وجوه التنزيل يتنزل وفق الترتيب الذي سارت عليه الدعوة الإسلامية ؛ يرشد إلى المنهج السوي الذي ينبغي أن تسلكه خطوات النبي ﷺ ، ويرسم معالم الطريق الذي يجب أن تسير فيه حركات **الرسول عليه الصلاة والسلام** ، مما يناسب مختلف الأوضاع والمراحل ، وهي إحدى حقائق أسرار التنجيم القرآني ، وتقسيمه إلى مكي ومدني ، إضافة إلى حكم تيسير حفظه وتثبيت قلب **النبي عليه الصلاة والسلام** ، والتدرج بالأحكام والتشريعات .

إن مسايرة هذه الأحداث والهيمنة عليها

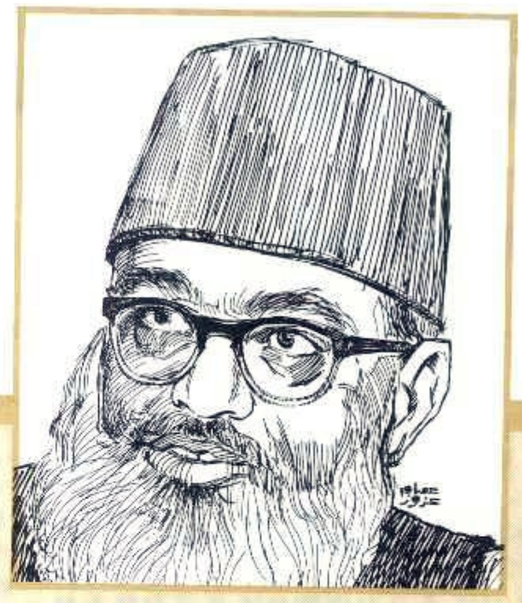

● ابو الاعلى المودودي ●
[فهم المعطيات الفكرية والواقعية للنص القرآني]

● د. عماد الدين خليل ●
[إضافة البعد التاريخي لفهم القرآن]

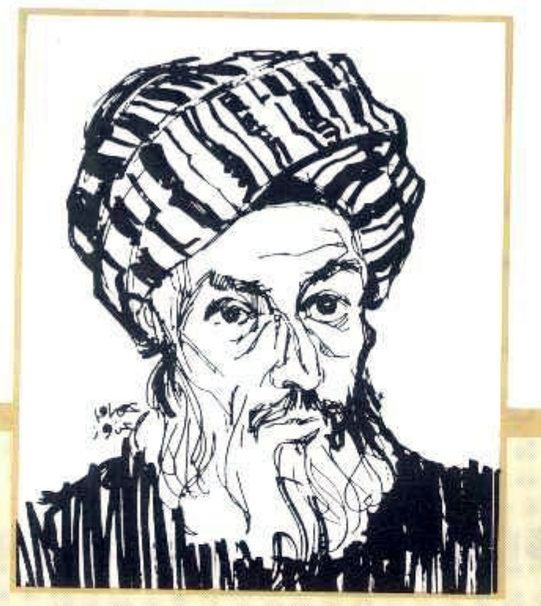

● الـــــرازي ●
[التمهيد لعلم أسباب النزول]

● لقد كان القرآن الكريم في مختلف وجوه التنزيل يتنزل وُفق الترتيب الذي سارت عليه الدعوة الإسلامية يرشد إلى المنهج السوي ويرسم معالم الطريق بما يناسب مختلف الأوضاع والمراحل.

صورة جلية لمنزع القرآن في ربط مواضيعه بأحداث السيرة النبوية لتأكيد الطابع الإنساني فيها بطرق التوجيه والإرشاد ؛ ولسوء الحظ فإن الدراسات القرآنية القديمة لم تحفل كثيراً بأمر هذه الروابط ، وحتى في عصرنا الراهن لم يتفطن إلى مُدركاتها إلا القلائل من الدارسين ذوي الفكر المستنير من أمثال « **ابي الأعلى المودودي** » رحمه الله .

اللغة والفهم والبعد التاريخي

ولئن كان من المؤكد أن كل تحليل لمثل هذه الينابيع الرقراقة في النص القرآني يخضع لمحورين أساسيين هما : **اللغة والفهم ، فإن إضافة البعد التاريخي أصبح أمراً طبيعياً وضرورياً ، خاصة على منوال الكتابات الرائدة التي عالجها الدكتور « عماد الدين خليل »** .

ورغم ان محور اللغة هو مدخل أساسي لفهم كلمات القرآن إلا أنه مستقل عن المدخل التاريخي الموصوف ، ولقد أعاننا « **المودودي** » رحمه الله على فهم المعطيات الفكرية والواقعية التي لازمت أجواء التنزيل القرآني ، والتي تستلزم الإحاطة الكاملة بها نوعاً من المكابدة والجهد .

بين أســـــلوب الوحي وخصائص التأليف الإنساني

لقد ميز **المودودي** في مقدمة تفسيره **للقرآن** ـ كمدخل ضروري لكل عملية فهم ـ بين أسلوب الوحي وخصائص التأليف الإنساني ، فذكر أن الاختلاف الجوهري بينهما يكمن في أن جميع التآليف البشرية تدور في الغالب حول موضوع موحد وأسلوب خاص ؛ تندرج في الغالب ضمن فصول وأبواب تخدم أغراض الموضوع بخلاف القرآن الذي يضم بين طياته جملة زاخرة ومتداخلة من المسائل العقائدية والأخلاقية والشرعية ؛ إضافة إلى العبرة والزجر والقصص التي تظل تتكرر بوجوه منهجية متباينة ، تخالف الأنماط التقليدية المألوفة .

وفي سبيل فهم عميق لهذا التداخل المفاهيمي يقترح المؤلف رحمه الله إلماماً ضرورياً بجملة من المعلومات الأساسية ـ تصلح أن تكون بحثاً مستقلاً ـ ولنقتصر على تعمق جذور الحدث القرآني من خلال مظهر آخر هو التناسق العجيب في ترتيب آيات القرآن وسوره :

إن التداخل الذي أشار إليه الإمام « المودودي » لا يَنْحَلُّ إلا على ضوء إدراك الثنائية القائمة بين الآيات آخذة بأعناق بعضها ، وبين تسلسل السور نفسها ، وهي عملية كفيلة بلا شك لإثبات وَهْمِيَّةِ ما كنّا نعتقده تداخلاً لا فكاك منه ، وحيث إن القرآن الكريم ظل ينزل منجماً كما علمنا حسب الحاجة ، وعلى مقتضى الزمن والملابسات في عهدين وبيئتين متغايرتين هما مكة والمدينة .

علم المناسبات وفوائــده . . .

فإنه من المدهش حقاً أن يدرك المرء مدى عمق الترتيب والإعجاز اللذين أحاطا بنص القرآن الكريم ، مما مهد لنشوء ما يعرف بعلم المناسبات بفضل مجهودات « **الرازي** » و « **النيسابوري** » و « **البقاعي** » و « **السيوطي** » ، وتكمن فائدة هذا العلم في الربط والتأليف بين هياكل النص القرآني لتحقيق نوع من المطابقة بين المعاني والأجزاء كحقيقة قائمة في بنية القرآن من أوّله إلى آخره .

التجارب الموضوعية في التفسير

والفائدة الثانية لهذا العلم أنه يفسح المجال العميق لأنواع التجارب الموضوعية في التفسير ، ولعل إحدى المحاولات الرائدة التي ظهرت في هذا العصر وتستحق كل تنويه تجربة السيد « **محمد باقر الصدر** » رحمه الله ، والتي ظهرت في السوق منذ سنوات تحت عنوان « **مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن** » .

وتهدف هذه الدراسة كما ذكر المؤلف إلى تحديد موقف نظري للقرآن الكريم وبالتالي للرسالة الإسلامية ، حيث لا يتناول تفسير القرآن آية فآية في الطريقة التي يمارسها المنهج التجزيئي ، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية ، أو الاجتماعية أو الكونية بوصفها حواراً مع القرآن ، وطرحاً للمشاكل الموضوعية عليه ؛ بقصد الحصول على الإجابة القرآنية ..

إن هذا النوع من التفاعل المباشر مع الوحدة الموضوعية للخطاب القرآني قد طبَّقها المؤلف بنجاح على سنن التاريخ في القرآن ، ومزية هذه المعالجة وغيرها من الدراسات الجادة التي بدأت تظهر في ربوع أمتنا أنها إثراء حقيقي ، وتعميق للطابع العام الذي يسيطر على روح القرآن التي تجمع بين أصالة مراقبة الواقع وتوجيهه ، وربطه مع حقائق الكون الخالدة ، وعرضها ضمن قوالب بلاغية إعجازية ، تمثل الدستور الكامل للحياة الإسلامية وإمداداتها ؛ تصديقاً وتمشياً مع قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (النساء : ٨٢) .

وما لم يحصل هذا الفهم كله فإننا سنقع حتماً في تلك النظرة التجزيئية التي طالما أحاطت بالنص القرآني عبر الأزمان والتي كان المستشرقون من أكبر ضحاياها .